المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

سيرة المتنبي

بقلم
سلمان هادي الطعمة
كربلاء ـ الجمهورية العراقية

(١)

في فجر حياتي الادبية شغفت بابي محسد ، وكان هذا الشغف يكبر معي .. لذا كانت هذه الدراسة استقطارا لذلك الشغف المتنامي .

كفى العربية فخرا شامخا وعزا ساميا ان تنجب هذه الشخصية الفريدة في فكرنا العربي . ولا احسب شاعرا عربيا كان يمكن ان يكون في هذا العصر ابعد صرخة واكثر حماسة واورى زندا من هذا الشاعر . وقد لا اعدو الصواب اذا قلت ان المتنبي اغزر الشعراء فضلا واوسعهم شهرة واعلاهم منزلة ، فقد رفع شان الشعر العربي واحله مرتبة لم تكن له من قبل ، وحمل الراية عاليا ، وفتح للشعراء طرائق الخلد ، وسن لهم سنن المجد . وبذلك تبوا مكانة رفيعة ومنزلة سامية ، مما دفعنا الى الاعجاب بعبقريته والافتتان بشعره .

ولد الشاعر الحكيم ابو الطيب المتنبي في محلة كنده بالكوفة . وقد اجمع الرواة ان تاريخ مولده هو سنة ٣٠٣هـ . ذكره ابن خلكان في تاريخه فقال : ابو الطيب احمد بن الحسين ابن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور ، وقيل هو احمد بن الحسين بن مره بن عبدالجبار والله اعلم (١) . وقال عنه ابن رشيق في كتابه العمدة : انه مالىء الدنيا وشاغل الناس ذلك هو احمد بن الحسين الملقب بابي الطيب المتنبي(٢) .

ومهما يكن فهو عربي الاصل ، نشا في اسرة فقيرة ، ويعرف ابوه بعبدان السقاء كان عمله سقاية الماء في محلة كنده ، وقد ارسله حين درج الى مدارس العلويين في الكوفة ليتعلم فيها القراءة والكتابة مع فريق من اولاد اشراف العلويين . واخذ يختلف على دكاكين الوراقين لمطالعة بعض الكتب والكراريس ، وكانت هذه الحوانيت منتدى للادب ، يقصدها العلماء والادباء والباحثون ، فلا بد انه كان يلقى فيها كثيرا منهم ويتصل بهم. وطبيعي ان تلك الحوانيت هي التي مهدت للمتنبي ثقافته الاولى، ساعده على ذلك ذكاؤه الحاد ، ويروى عنه انه كان قوي الذاكره، سريع الحفظ . وانه ذهب الى البادية واقام فيها سنتين لتقويم لسانه وتعلم اللغة . ويبدو انه سافر لهذه الغاية عندما اغار القرامطة على الكوفة سنة ٣١٢هـ ، وغادرها ثانية سنة ٣١٩هـ مع كثير من اهلها لعودة القرامطة اليها بعد انتصارهم على جيوش الخلافة . ويحدثنا الرواة انه خرج الى بادية بني كلب . فاقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة ، فعظم شانه بينهم ، حتى وشى بعضهم الى لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية بان ابا الطيب ادعى النبوة في بني كلب وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه ، فخرج لؤلؤ الى بني كلب وحاربهم وقبض على المتنبي وسجنه طويلا ثم استتابه واطلقه(٣) . ونحن لا ندري على وجه التحقيق لم ذهب المتنبي الى البادية ، هل ذهب الى هناك ليتقن اللغة ، ام ان اباه اضطر الى الهرب من الكوفة واللجوء الى الصحراء نتيجة للحوادث السياسية والاضطرابات التي كانت تتعرض الكوفة آنذاك !! فنحن نعلم ان الكوفة كانت عرضة لهجمات القرامطة الذين اقاموا لهم حكومة في البحرين ، وكان النزاع بين رئيسهم ابي طاهر وبين الخلافة العباسية شديدا ، فقد هاجم ابو طاهر البصرة سنة ٣١١هـ ، وقطع طريق الحج وسلب الحجاج العائدين من مكة سنة ٣١٢هـ .

وفي السنة نفسها قطع طريق الحجاج العراقيين الذاهبين الى مكة ، واغتنم فرصة الذعر الذي استولى على العراقيين ، فدخل الكوفة ونهبها وضربها ثم عاد الى البحرين . فلعل هجرة والد ابي الطيب الى البادية كان نتيجة لهذا الذعر الذي لحق الكوفيين . ومهما يكن من سبب هذه الهجرة الى البادية ، فاننا نعلم ان والده استقر به في بادية السماوة عند بني الصابي ، وهم فرع من جشم بن همدان اخواله ، ومكث سنتين في بادية السماوة ، ويبدو ان القرمطية اجتلبت في بدء ظهورها انصارا لها من اوساط البدو المتحمسين . ولعل تلك الدعوة تناولت القبائل كافة(٤) ، مما حمل الدكتور ر . بلاشير على الاعتقاد بانه لقي بعض القرامطة فتاثر بهم ، فان لم يتاثر بالدعاوة القرمطية فليس بمستبعد ان يكون اصابه الاضطراب من جراء المأساة التي قلبت اوضاع الخلافة(٥). ويتابعه في هذا الراي الدكتور طه حسين اذ قال : ان المتنبي قد اصبح قرمطيا من اثر بقائه في البادية ، اذ ان القرامطة منذ

ظهروا كانوا يجدون في بادية الشام حماسة للدعوة ، فهو تأثر بهم او انه اصبح داعية من دعاتهم ، وانه طمع في ان يستهوي (بدر بن عمار امير طبريا) الى قرمطيته القديمة (٦) .

عاد المتنبي الى الكوفة ، ورجح بعض الباحثين ان ذلك كان سنة ٣١٥هـ ، واستقر في الكوفة ، ولا نعلم على وجه التحقيق كيف قضى المتنبي حياته في الكوفة بعد عودته اليها ، وكل الذي نعلمه انه اتصل بشخص يعرف ابو الفضل الكوفي ، وابو الفضل هذا رجل قد ثقف الفلسفة . يقول صاحب الخزانة : ان ابا الطيب وقع في صغره الى واحد يكنى ابا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضله كما ضل(٧) . ولا ندري اذا كان ابو الطيب قد درس عليه الفلسفة حقا ! وكل الذي نعلمه ان صاحب الوساطة يذكر لنا شعره الذي تأثر فيه بالفلسفة اليونانية ، فهل كان ذلك لانه درس الفلسفة ، او كان من اثر هذه الآراء العامة التي كانت شائعة بين المثقفين في ذلك العصر ! ونحن اميل الى الاعتقاد الثاني ، فدراسة الفلسفة لابد ان تكون قد تركت لها آثارا على شعره . وقد مدح ابو الطيب ابا الفضل بقصيدة قريبة فيها ابيات تلفت النظر انها في الحقيقة تحوي آراء هي التي حملت بعض الباحثين على القول باعتناق المتنبي لمذهب القرامطة . ولكن ناشر ديوان المتنبي يقول عنها ان المتنبي انما قالها ليمتحن عقب ابي الفضل ، وكلا التفسيرين يجانبان الواقع ، فنحن نعتقد ان المتنبي انما ذكر هذه الصفات وهذه الآراء ليفخم بممدوحه ، وان المتنبي لم ير باسا في مدح من يعتنق هذه المبادىء فيقول مثلا :

يا ايها الملك المصفى جوهرا
من ذات ذي الملكوت اسمى من سما
نور تظافر فيك لاهوتية
فتكاد تعلم علم ما لم يعلما
وبهم فيك اذا نطقت فصاحة
من كل عضو منك ان يتكلما
انا مبصر والناس اني نائم
من كان يحلم بالاله فاحلما
كبر العيان علي حتى انه
صار اليقين من العيان توهما(٨)

ولكن هذا الكلام ، وان كان صريحا في ذكر الحلول ، فلا يدل على ان المتنبي كان قرمطيا ، وربما كانت هذه عقيدة ممدوحة لابي الفضل فذكرها تقربا اليه ، وهو على كل حال ، يدل على عدم اهتمام المتنبي بالتمسك بروح الدين . وبعد رجوعه من البادية الى الكوفة ، لم يظل مكثه بها ، فتركها الى بغداد ، ولم يبق في بغداد طويلا ، فخرج عنها الى الشام . يقول طه حسين : ان المتنبي انما ترك الكوفة بسبب عقيدته القرمطية خشية على نفسه من يؤاخذ ، وانه خرج الى الشام بسبب هذه العقيدة ليتصل بالدعاة هناك ويعمل على نشر الفكرة (٩) . ونحن نرى ان في هذا الرأي اسرافا في الاستنتاج ، فقد كان المتنبي حدث السن ، وليس من المعقول ان يوكل الى الاحداث مثل هذا النشاط الذي يريد طه حسين ان ينسبه الى المتنبي . نحن أميل الى الاعتقاد بان المتنبي انما قصد به ابوه الى بغداد ، بعد ان تجلت قدرته على قول الشعر طلبا للرزق هناك ، ولكنه لم يحظ في بغداد بما كان يأمل بسبب حداثة سنه ولان اداة الشعر لم تكن قد استكملت في نفس المتنبي . ويميل الدكتور بلاشير الى الظن بان المتنبي قد طالت اقامته في بغداد عاصمة الخلافة فاتصل هناك بالعلماء والادباء ياخذ عنهم(١٠) . ولم تكن هذه الاقامة لمجرد الاستعداد للخروج الى الشام كما يرى الدكتور طه حسين ، وكلا الرايين يقومان على الحدس والظن اكثر مما يستندان الى دليل تاريخي . ولكن الذي لا ريب فيه هو ان المتنبي لم يبق طويلا في بغداد ، وانه خرج الى الشام وهو لم يبلغ العشرين من عمره . ونرى ان الاحداث التي كانت تجري في الشام من نزاع بين الاخشيديين وبين خلفاء بغداد ومحاولة الطامعين انشاء دولة والسيطرة على المدن واقامة ملك لهم هو الذي لفت المتنبي الى الذهاب الى هناك ، لانه قد يجد في مثل هذا الوسط المضطرب مجالا لتحقيق طموحاته التي ولدتها في نفسه آراء القرامطة من ناحية وطموح طبيعي في نفسه من ناحية اخرى ، ولانه في الشام لا يعرفه احد فلا يمكن ان تقف قصة مهنة ابيه عائقا في تحقيق مثل هذه المطامع . فالناس هناك يجهلون مثل هذه المهنة . ونحن نرى ان المتنبي في هذه الفترة اتصل بالرؤساء والزعماء يمدحهم ولا يكاد يستقر في محل الا ليتركه الى محل آخر . يقول عبدالجواد السيد ابراهيم : كانت غرة رحلاته الميمونة الى بلاد الشام حيث انتقل من بدوها الى حضرها وقصد طبرية واللاذقية وانطاكية ، فاتصل في طبريه ببدر بن عمار وفي اللاذقية بالتنوخيين وفي انطاكية بابي العشائر الحمداني قريب سيف الدولة ، وكان يمدح من اتصل بهم لا يضن بمدائحه على احد(١١) . استقر اول الامر في الجزيرة وشمال الشام ومدح جماعة من رؤساء البادية والفيناء الحاضرة واوساطها ايضا ثم مضى فاقام في طرابلس حينا قصيرا ، وانحرف الى طبرية فاقام قليلا في اللاذقية اتصل بالتنوخيين وهم امراء العرب فمدحهم ثم حدثت بعد ذلك الحادثة التي ادت به الى السجن ، وبقي في السجن نحوا من سنتين ، واطلق سراحه ، ففادر جنوب سوريا الى الشمال وظل يتنقل هناك بين الامراء حتى هيا له الاتصال بسيف الدولة . ولعل كثرة تنقله بين المدن وبين رؤساء القبائل مع اعلانه الثورة في شعره هو الذي جعل خصومه يكيدون له عند والي حمص فسجن . اصبح المتنبي خلال اقامته في الشام اكثر شهرة وافدر على اثارة حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، واستطاع هؤلاء الحساد ان يكيدوا له عند والي حمص ، فكتبوا اليه ابياته التي تدل على استهانته بالدين من ناحية واستعداده للثورة من ناحية اخرى . ولعل صاحب حمص قد خشي ان يثور المتنبي ، فالقاه في السجن . ولكن من الرواة من يقول ان سبب سجنه هو ادعاؤه النبوة وخداعه اعرابا من كلب بهذه النبوة ، وان امره كان يقوى حتى خرج اليه امير حمص ، ففرق جمعه والقاه في السجن . يذكر ابن تغري بردي : ونزل ببني كلب والتام فيهم وادعى انه علوي حسيني ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعي انه علوي الى ان اشهد عليه بالشام بالكذب في الدعوتين وحبس دهرا طويلا(١٢) . وادعاء المتنبي للنبوة امر مشكوك فيه ، والقول فيه يرجع الى روايات شفهية ثلاث ، فالبديعي في (الصبح المنبي) يروي لنا رواية عن ابي عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي وخلاصتها ان الصداقة كانت متينة بين ابي عبدالله والمتنبي ، وان المتنبي قد اظهر له انه نبي مرسل الى هذه الامة الضالة ليملاها عدلا كما ملئت جورا ، وانه يوحي له ايضا وانه قد اوحى مائة عبرة واربعة عشر عبرة والعبرة يتجاوز مقدارها الآية من القرآن ، وان معجزته هو ان يحبس الدر عن الابل لقطع ارزاق العصاة الفجار ، وانه استطاع ذلك بحيلة او بضرب من السحر . وان ابا عبدالله هذا قد آمن به

وامتدت دعوته من اللاذقية حتى وصلت سورية ووصلت السماوة . ورواية اخرى يرويها لنا القاضي بن شيبان عن الخطيب البغدادي في تاريخه ، يقول : ان ابا الطيب قد استقر عند بني كلب فادعى انه علوي من نسل الحسين ثم ادعى انه نبي ثم رجع عن دعوة النبوة الى ادعائه العلوية فكان ذلك سبب سجنه . ويقال انه كان في اثناء دعوته يذيع قرآنا له ، وان احد الرواة قد كتب سورة من (قرآنه) ولكنه قد فقدها ، ولم يبق من هذا القرآن الا آيات علقت بذاكرته منها : « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفي اخطار ، امض على سننك ، واقف اثر من كان قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من الحد في دينه ، وضل عن سبيله » (١٣) .

وكان ابو الطيب يومئذ يصرح بعبارته المشهورة : « لا نبيّ بعدي » ويقول ان النبي عليه الصلاة والسلام اخبر بنبوته وقال : لا ، نبيّ بعدي وانا اسمي في السماء لا ! » (١٤) .

هذه هي الروايات التي يعتمد عليها المؤرخون ويستنتجون منها ان ابا الطيب قد ترك الاسلام واعلن النبوة ، ومن اجل ذلك لقب بالمتنبي . والذي نلاحظه على تلك الروايات ان الذين يروونها اشخاص مجهولون ، وان رواياتهم قد تناقلتها الافواه، فزادت فيها ونقصت ، ولكننا نجد ان الرواة المعلومين ممن اتصلوا بالمتنبي وشرحوا شعره ، او ممن جاؤوا بعده وعنوا عناية كبيرة بشعره لا يذكرون لنا شيئا عن هذه النبوة كابن جني وابي العلاء المعري ، ونحن نعلم ان ابا العلاء كان قليل الاهتمام في امور الدين حتى انه لا يرى باسا ان يشير الى هذه النبوة ، ولكنه لم يفعل . وقد عرض المستشرق (كراتشكوفسكي) لهذه الروايات ، وهو يقول عنها انها روايات ساذجة غير جديرة بالاطمئنان ، ويقول ان ديوان المتنبي لا يشير اشارة الى دعوى النبوة ، وان شرّاح الديوان لا يعتقدون بذلك ، وان الذين ترجموا للمتنبي لا يذكرون هذه الرواية على انها رواية قاطعة ، كما ان المتنبي قد انكر بطرق ادعائه النبوة ، وان ابن جني صديق المتنبي يذكر انه انما لقب بالمتنبي لقوله :

انا في امة تداركها الله (م)
غريب كصالح في ثمود
ما مقامي بارض نخلة الاّ
كمقام المسيح بين اليهود(١٥)

وان ابا العلاء المعري يقول في « رسالة الغفران » : « وحدثت ان المتنبي كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النبوة اي المرتفع من الارض وانه قد طمح في شيء من الملك ولايداعه في الشعر لقب بنبي الشعر كما يقول الطبسي حيث رثاه بعد قتله قال :

كان من نفسه الكبيرة في جيـ
ـش ولي الكبرياء ذا سلطان
وهو في شعره نبي ولكن
وجدت معجزاته في المعاني(١٦)

ويستنتج كراتشكوفسكي من ذلك كله ان قصة ادعاء ابي الطيب النبوة انما هي قصة شعبية ذاعت لتفسر اسباب سجن ابي الطيب ويريد الى ذلك قوله سواء صحت هذه القصة ام لم تصح ، فلا يجب ان نغير شيئا عن راينا في عقيدة ابي الطيب الدينية . فهو اذا صح ادعاؤه النبوة قد ترك الاسلام ولم يعترف بان محمدا خاتم الانبياء وانها ان كانت كاذبة تظهر لنا راي الاديان التي جاءت بعد المتنبي في عقيدته الدينية . وقد ذكر هذا في آراء عباس محمود العقاد ايضا . ولا نعلم اذا كان قد اطلع على راي كراتشكوفسكي حين كتب ذلك او لم يطلع . نرى ان قيمة راي كراتشكوفسكي انما هي في مناقشة الروايات المذكورة ، فهو يرجح بالقول ان الشراح لم يكونوا يصدقون دعوة النبوة ، ونحن نعلم ان الشراح كانوا من المعجبين بالمتنبي ، وكانو معروفين بالتمسك بالدين ، فلم يكونوا راضين ان هذا الشاعر الذي اعجبوا به خارج عن الاسلام فلم يحاولوا في تفسيراتهم المختلفة ان يخلوا في شروحهم كل الاشعار التي تحمل على الظن بان المتنبي كان مستخفا بالدين ، فلذلك كانوا اجدر بان يرفضوا دعوى النبوة هذه ، ثم ان الذين ترجموا للمتنبي لن يجمعوا على رفض هذه الفكرة ، بل ان اثنين منهم يبدوان رايهم الصريح فيصدقان ادعاء المتنبي النبوة . ومهما يكن فان الديوان لا يشير صراحة الى هذه النبوة ، فان فيه قطعا تدعو صراحة الى الثورة ، ومن المحتمل ان شعره كان يحوي قطعا اكثر مما جمعه في ديوانه ، ويمكننا ان نستنتج بعد هذا على الاقل ان المتنبي كان يدعو الى الثورة في الاسلام ، وانه كان يخلط هذه الدعوة بافكار دينية وهو امر يحملنا انكاره على تجاهل الطور التاريخي الذي كانت تحدث فيه الثورات حينذاك اذ لم تكن توجد وسيلة لجذب الناس والتفافهم حول الداعي الا هذه الوسيلة ، فنحن نعلم ان المتنبي لم يكن صاحب مذهب اجتماعي يساعد الناس على الالتفاف حوله ، ثم انه كان بعد شابا لم يستطع ان يكون له مثل هذا المبدأ ولم يكن معروفا كشاعر ، ولذلك فان منطق الحوادث يحملنا ان نسلكه في جملة الثائرين الدينيين الذين كثر ظهورهم في تلك الفترة من تاريخ الاسلام يؤيدنا في ذلك كثرة اتصال المتنبي بالقرامطة ، وذكر آرائه في مدح رجل منهم واستعداده وشعره الذي يدل على استعداده للثورة فهو يقول :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فاليوم اقحم حتى لات مقتحم
لاتركنّ وجوه الخيل ساهمة
والحرب اقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها
حتى كان بها فرارا من اللمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحة
كانما الصاب معصوب على اللجم
بكل منصلت ما زال منتظري
حتى ادلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم(١٧)

ان تلك الابيات التي يصرح فيها ابو الطيب عن عزمه على الثورة واستهانته بشيخ لا يتردد عن سفك دم الحجاج في الحرم ، ويرى الصلاة نافلة تدل بصراحة على ان ثورته كانت ذات وجه ديني ، وهذا يحقق لنا قوة ادعاء المتنبي للنبوة ، فالمتنبي لم يكن كاذبا حين انكر انه لم يدع النبوة ، اي انه لم ير ان يكون نبيا لمحمد ولكنه قام بحركة ذات فكرة دينية ، فهو لم يكن طبقي الفكر ، ولكنه اراد ان يتزعم حركة دينية تحقق له مطامحه متاثرا باراء القرامطة من غير شك ، ففشل فيها وسجن ولقب بعد سجنه بالمتنبي . وقد ابدى في سجنه صبرا ، فهو يقول مخاطبا سجانه ابا دلف :

اهون بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برّك بي
والجوع يرضي الاسود بالجيف
كن ايها السجن كيف شئت فقد
وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة
لم يكن الدر ساكن الصدف (١٨)

ولكن يظهر ان سجنه قد طال ، وبسبب من اضطهاده والحاق الجوع والمرض والاغتراب عليه ، كتب الى والي حمص قصيدة يستعطفه بها ومطلعها :

ايا خدد الله ورد الخدود
وقدّ قدود الحسان القدود
فهنّ اسلن دمائ مقلتي
وعذبن قلبي بطول الصدود
وكم للهوى من فتى مدنف
وكم للنوى من قتيل شهيد
فواحسرتا ما امرّ الفراق
واعلق نيرانه بالكبود

الى ان يصل قوله :

امالك رقي ومن شانه
هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا
ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء
واوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما بالنعال
وقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل
وها انا في محفل من قرود
تعجل فيّ وجوب الحدود
وحدّي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت عن العالمين (م)
بين ولادي وبين القعود
فما لك تقبل زور الكلا
م وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين
ولا تعبان بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى اردت
ودعوى فعلت بشاو بعيد(١٩)

تلك الابيات تدلنا على ان هناك اعداء كادوا للمتنبي فسجنوه ، وانه لم يفعل ما اتهموه به . وقد اثارت القصيدة عطف الوالي عليه ، فاخرجه من السجن واطلقه واستتابه فيما يظهر ، ولكن استتابته مما نسبه اليه العامة ، ولم يكن بعسير على المتنبي ان يعلن توبته ، وقد رايناه انه لم يدع هذه النبوة، وكانت الفترة التي قضاها المتنبي بعد خروجه من السجن فترة تشرد وفاقة وضعة وخمول كان يتصل بالوجهاء واصحاب المكانة بمدحهم فلا يجيزونه على الشعر ، الا اهون الجزاء . يقولون انه مدح احد الوجهاء بالقصيدة المشهورة التالية التي مطلعها :

بابي الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلابيا(٢٠)

فجزاه عليها دينارا . ولم تحسن حاله حتى قصد انطاكية ، واتصل هناك بالامير ابي العشائر ومدحه بعدة قصائد كان اولها :

اتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلفه في المآقي(٢١)

فقربه ابو العشائر وحسنت حاله عنده . كان ابو العشائر هذا قريبا لسيف الدولة علي بن حمدان راس الدولة الحمدانية ، فيسر له الوصول اليه ، وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ . ودامت صحبة ابي الطيب للامير ثمان سنوات ، وخصص للشاعر ثلاثة الاف دينار كل سنة عدا الهبات السخية والعطاء المتواصل من مال وثياب وخيول ومزارع ، وخلد مقابل ذلك وقائعه مع الروم بقصائد قلّ ان نجد لها نظيرا في الشعر العربي . ثم حدث ما عكر الصفو ، فقصد الشاعر مصر .. فالمتنبي وان كان قبل اتصاله بسيف الدولة مغمورا ثم تبلورت حياته تبلورا واضحا بعد اتصاله به ، الا ان نفسه كانت تضطرم بثورة اكثر ، وهو لم يزل في عنفوان الشباب ، فقد شرّق وغرّب . مكافحا مناضلا ، وعاش مع طموحه في صراع مرير(٢٢). يروي البديعي : كان ابو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة انطاكية قدم المتنبي اليه واثنى عنده عليه وعرفه منزلته من الشعر والادب واشترط على سيف الدولة اول اتصاله به انه اذا انشده مديحه لاينشده الا وهو قاعد وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وتطبع الى ما يرد منه وذلك في سنة ٣٣٧هـ وحسن موقعه عنده فقربه

واجازه الجوائز السنيه ومالت نفسه اليه واحبه فسلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة(٢٣) . نال ابو الطيب جاها وحظوة من لدن سيف‌الدولة ، ولكن من اين للشاعر المتعالي المقيم على قلق ، ان يهدا او بالاحرى ان تهدا خواطر الذين قطع عليهم بشعره ارزاقهم ، او اقصى منزلتهم من الامير الذي اجل شاعره في اكرم منزله . لقد بدات الوشايات والسعايات في بلاط سيف‌الدولة تعمل عملها ، حتى لقيت في نفس الامير اكثر من صدى ، فتحول حماسه لشاعره الى فتور ، ولا نقول جفاء ، خصوصا وان وراء الوشايات والسعايات كبارا من امثال ابي فراس الحمداني وابن خاولويه والنامي وسواهم من رجال البلاط(٢٤)

وعندها علت صيحات الشعراء وشكواهم من تعالي ابي الطيب عليهم ، فاثر ذلك في سيف‌الدولة ثم قويت نفرته مع ابي الطيب ، فامر غلمانه بقتله ، فتعرضوا له في الطريق ، غير انه استطاع تفريقهم عنه واختفى في حلب لدى بعض اصدقائه ، وراسل الامير فانكر انه امر له بسوء ، وبعد تسعة عشر يوما جاء الى القصر ، ورحب به سيف‌الدولة ، وخلع عليه وساله عن حاله ، فاجاب : رايت الموت عندك احب الي من الحياة عند غيرك . وكان اشياعه ينشرون مدائحه ويذيعون فضائله ويتناولون به ، واعداؤه يختلقون عليه ويفضون من شانه . وفي ذات مرة قال ابو فراس شاعر البلاط الحمداني لابن عمه :

« هذا المتشدق كثير الادلال عليك . فانت تعطيه ثلاثة آلاف دينار كل سنة على ثلاث قصائد ويمكنك ان تغدق مئتي دينار على عشرين شاعرا ياتون بما هو خير من شعره (٢٥) . » . غير ان ابا الطيب فارق سيف‌الدولة حانقا متبرما فلعل وقوفه بين يدي كافور وهو من اعداء سيف‌الدولة يثير فيضه ، او لعله اراد به مصانعة كافور لينال منه الذي وفد عليه من اجله على انه ـ وان ترك معه ما جرت به عادته مع سيف‌الدولة ـ قد اتخذ لمزته لونا آخر ، فقد كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقته(٢٦) .

اقام ابو الطيب في مصر اربع سنوات ونصف سنة وعرض في مدائحه لكافور بسيف الدولة ورضي ان ينشد شعره واقفا بين يديه على خلاف عادته ، ولقي الشاعر من كرم كافور ما جعله في مصاف الاغنياء . ولكنه ما لبث ان اسفر عن اطماعه الاولى ، فطلب ان يتولى (ولاية) او (امارة) والح في طلبه هذا والحف، ومدح نفسه في مطلع القصائد التي مدح بها سيده الجديد . ولما راى كافور يماطله ويؤجل تنفيذ رغبته ، راح يشكو امله ويمتدح سيف‌الدولة ويعلن اسفه على فراقه . ودبت النفرة بين الرجلين ، وانقطع ابو الطيب عن مدحه ثمانية اشهر ، ثم نظم قصيدة ظاهرها المدح وباطنها التانيب . ثم اصيب بالحمى ونظم اثناء مرضه قصيدة عرض فيها بكافور وبخله . ولم يكن كافور اهلا لهذا الهجاء ربما منع الشاعر ولاية او ضيعة ولكنه استحقه بما وعد ومطل ، ثم اخلف فملا نفس الشاعر الطموح غيظا(٢٧) . تناقل الناس القصيدة وبلغت كافورا فامتعض .

وكانت بين كافور وفاتك الرومي منافسة عنيفة ، وكان التالي يقيم بالفيوم (وهي الطاعة له) حتى لا يضطر الركوب في معية الاسود ، واتصل فاتك بابي الطيب وراسله،والتقيا في‌الصحراء، فكانت هديته للشاعر الف دينار ذهبا اتبعها بعدة هدايا ثمينة، فمدحه بقصيدة وخز فيها كافورا وخزا مؤلما .

اما كافور فقد كظم غيظه ، وطلب من الشاعر ان يعود الى سيرته الاولى في مدحه ، فتجددت آماله ، وحسب ان الوالي ـ او كما يلقبه (ابو المسك) و (الاستاذ) سيبر بوعده في النهاية ، ونظم قصيدة طويلة كرر فيها طلباته السابقة وملاها لوما وتوبيخا ، فغضب ابو المسك ومنع الشاعر عن الرحيل وبث حوله العيون والارصاد . ولما حل العيد وشغلت احتفالاته رجال الدولة هرب ابو الطيب ونظم قصيدته المشهورة هذه عند خروجه من مصر ، ومطلعها :

عيد باية حال عدت ياعيد
بما مضى ام بامر منك تجديد(٢٨)

وسار في درب غير مطروقة ، وعلم كافور بالامر ، فكتب الى عماله ان يقتلوا آثاره ويعتقلوه ، لكنه استطاع الافلات بعد رحلة مضنية حتى وصل الكوفة بعد ثلاثة اشهر ..

هجا الشاعر كافورا وافحش ، وجاءت كل كلمة في قصائده شواظا من نار . وبقي في العراق ثلاث سنوات ، ومر ببغداد عدة مرات ، وابى ان يمدح الوزير المهلبي ، فاغرى به جماعة من شعراء العاصمة ، افرطوا في شتمه وتحقيره فلم يجبهم . علم سيف‌الدولة بخروج الشاعر من مصر مغاضبا لكافور ، وبلغته قصائده في هجوه ، فبعث اليه بالهدايا ، وساله القدوم الى حلب ، فعاد الى مدحه ، ثم بعث اليه قصيدة يعزيه بوفاة اخته . وقصد بعد ذلك الوزير ابن العميد الاديب الشاعر ، في فارس ومدحه . وسافر الى عضد الدولة البويهي في مدينة شيراز ، فرحب به وانزله افضل منزل ، ومدحه بست قصائد كافاه عليها بمال وافر ، وخلع سنيه . وبقي في شيراز مدة تقارب الثلاثة اشهر ، رحل عنها مودعا مليكها بقصيدة كانت آخر قصيدة له ، يقول :

وقد رايت الملوك قاطبة
وسرت حتى رايت مولاها
تجمعت في فؤاده همم
ملء فؤاد الزمان احداها (٢٩)

وسار حتى بلغ الاهواز . ثم نزل بواسط ، وهي تبعد عن بغداد نحو اربعين فرسخا . فلما كان بالقرب من النعمانية في موضع يقال له (الصافية) بالجانب الغربي من سواد العراق ، خرج عليه فاتك بن ابي جهل الاسدي ومعه عدد من الفرسان ، وقيل جماعة من بني ضبه تآمروا على قتله ، لان المتنبي كان قد هجا ضبه بن يزيد بن اخته ، وتعرض لامه وافحش في هجوهما ، فغاظ ذلك فاتكا ، وتحين الفرص للفتك به فلما

التقيا تقاتلا قتالا عنيفا . فقال له احد غلمانه ، لا يتحدث الناس عنك بالفرار ، وانت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم(٣٠)

فقال له المتنبي قتلتني قتلك الله ، وقاتل حتى قتل هو وابنه محسّد وغلامه مفلح . وكان ذلك في رمضان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م (٣١) وهو آنذاك في الواحدة والخمسين من عمره .

هكذا انطفأت شعلة وضاءة ، وانتهت حياة شاعر عبقري عظيم سجل اسمه في سجل الخالدين .

(٢)

لعب المتنبي دورا كبيرا في الشعر العربي ، فقد طرق ابواب الفنون الشعرية المعروفة ، ولم يكن في وقته من يساويه في فنونه التي جمع فيها من الادب فنونا وذلك انه ضرب في كل شيء منها بسهم وافر . وكان يتخذ شعره صناعة ، فلا يقوله ارتجالا ولا يندفع مع سجيته . وقد أجاد وابدع في شعره سواء من ناحية الخيال والاسلوب .

ويظهر ان ذكاءه الحاد ونفسيته العالية ساعداه كثيرا على التحليق في شعره بين كثير من الشعراء الذين عاصروه . ونتيجة رحلةشاقةفي ديوانه وتتبع اخباره وجدت شعره يكاد يتصفبدقة وصف وصدق لهجة وبراعة تركيب وروعة معاني . فهو شاعر متقد العاطفة ، مرهف الحس ، تطالعنا في شعره صور مغرية جذابة تاخذ بمعاقد القلب . والمتنبي كان ابعد شعراء هذه الحقبة صيتا ، ومع انه كان جوابة يتنقل ما بين مصر وخراسان يمدح الملوك والامراء والوزراء وينال رفدهم ، فانه يقول كاللائم لنفسه :

الى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل الناس في طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد(٣٢)

ونستطيع ان نلمس من قراءتنا للديوان ، تفوق ابي الطيب المتنبي في اغراض معينة هي : المدح والفخر والهجاء والحكمة والرثاء والوصف . وابو الطيب كما يتضح لنا كثير المبالغة في شعره ، فنحن ناخذها عليه من الناحية الادبية ، ولا نستدل بها على فساد عقيدته ، فمن ذلك قوله في مدح محمد بن زريق :

لو كان للنيران صوته جبينه
عبدت فصار العالمون مجوسا (٣٣)

ومن ذلك قوله من قصيدة قالها في صباه :

عمرك الله هل رأيت بدورا
طلعت في براقع وعقود
راميات باسهم ريشها الهد
ب تشق القلوب قبل الجلود
بنرشفن من فمي رشفات
هن فيه احلى من العنقود(٣٤)

والمتنبي فخور بشعره ، لا يرى في الشعراء من يوازيه ، وقد ساءه من سيف الدولة ان يساويه بغيره وهو الشاعر الكبير الذي يحب سيفالدولة حبا صادقا ، فعاتبه على ذلك ودعاه الى التمييز بين الشحم والورم ، والنور والظلمة ، وان يقدر مكانه الرفيع بين الادب والشعر .

وما الدهر الاّ من رواة قلائدي
اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا
ودع كل صوت غير صوتي فانني
انا الطائر المحكي والآخر الصدى(٣٥)

وربما كان المتنبي وحده الشاعر الذي حضر الحروب في هذه الحقبة ، وحارب في جيش سيفالدولة ، وذاق لذة النصر ومرارة الهزيمة ، وقال احسن الشعر العربي الذي قيل في وصف الحرب من قبل ومن بعد ، ويكفيه انه استطاع ان ينشد بمجلس سيفالدولة على رؤوس حساده :

ومرهف سرت بين الجحفلين به
حتى اتته يد" فرّاسة وفم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا
حتى تعجب مني القور والاكم (٣٦)

وما دمنا في الحديث عنفخره، فلا غرابة اذا ما ذكر قومه في مفاخره :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضاد
وعوذ الجاني وغوث الطريد
ما مقامي بارض نخلة الاّ
كمقام المسيح بين اليهود
انا في امة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود
ان اكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد (٣٧)

يذهب الدكتور عبدالوهاب عزام الى ان قصائد المتنبي في وصف حروب سيفالدولة الداخلية والخارجية تفوق اللاحم اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية (٣٨) فهو الشاعر الذي وصف وقائع ذلك العصر وحوادثه الجسام وجلائل الحروب والاعمال وصفا دقيقا في قصائد حماسية رائعة . يقول المثل

العربي المشهور « القتل بالسيف اوحى » او « الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك » حيث تدور رحى الحرب على السيف قديما، فهو سلاح ماض يفيد في ميادين الحرب منذ الجاهلية حتى الامس القريب . يقول المتنبي :

حتى رجعت واقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم(٣٩)

وقد قرر المتنبي للسيف امثالا سوائر بقيت كالكواكب سطوعا ونصوعا على هامة الزمن :

اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة
فلا تستعدن الحسام اليمانيا(٤٠)

وقوله :

تحمي السيوف على اعدائه معه
كانهن بنوه او عشائره (٤١)

وقوله :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت اليه والسيوف دم(٤٢)

وقوله :

حقرت الرديني حتى طرحتها
وحتى كان السيف للرمح شاتم (٤٣)

ومن اروع قصائد الحرب قصيدتان الاولى بائية وهي التي وصف بها المتنبي ظفر سيف الدولة ببني كلاب ، وذلك لدى خروجهم عليه سنة ٣٤٣هـ كقوله :

طلبتهم على الامواه حتى
تخوف ان تفتشه السحاب
فبت ليالياً لا نوم فيها
تخب بك المؤمة العراب
يهز الجيش حولك جانبيه
كما نفضت جناحيها العقاب
وتسال عنهم الفلوات حتى
اجابك بعضها وهم الجواب (٤٤)

اما القصيدة الثانية الرائية التي سجل فيها انتصار الامير المذكور على قبائل عقيل وقشير وبني العجلان وبني كلاب ايضا عندما تالبوا عليه وعاثوا في اطراف امارته فسادا عام ٣٤٤هـ وفيها تصوير صادق وتحليل مستفيض وصف فيها الشاعر عدم ركون البدو بطبيعتهم الى الشعب وتالبهم على سيف الدولة ومحاولتهم الاخلال بنظام مملكته وانهزامهم امامه في النهاية انهزاما شنيعا وابقاءه عليهم حلما وكرما .

فلزّهم الطراد الى قتال
احدّ سلاحهم فيه الفرار
مضوا متسابقين الاعضاء فيه
لاروسهم بارجلهم عثار
يشلهم بكل اقبّ نهد
لفارسه على الخيل الخيار
وكل احم يفل جانباه
على الكعبين منه دم ممار
يغادر كل ملتفت اليه
ولبّته لثعلبه وجار
اذا صرف النهار الضوء عنهم
دجا ليلان ليل والغبار
وان جنح الظلام انجاب عنهم
اضاء المشرفية والنهار (٤٥)

وأخيرا .. فلا احسب انني استوفيت هذا « العالم » الرحب بحثا ، فهو بحر متلاطم الامواج لا زال شاغل الناس ومالىء الدنيا ومدد الشعراء وتنازع الباحثين على مدارج العصور .

* ● *

مصادر البحث

(١) وفيات الاعيان : لابن خلكان ٦٢/١ والمنتظم : لابن الجوزي ١٤/٦ــ٢٠ .
(٢) العمدة : لابن رشيق ج١ ص٥٦ .
(٣) جواهر الادب / للسيد احمد الهاشمي ج٢ ص١٩٥ (١٣٧٤/١٩٥٥) .
(٤) تاريخ الامم والملوك : للطبري ٣٧٧/١١ وانظر : خزانة الادب للبغدادي ٣٨٩/١ .
(٥) ابو الطيب المتنبي ــ د . ر . بلاشير . ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني ص٥١ (دمشق ١٩٧٥) .
(٦) مع المتنبي ــ للدكتور طه حسين ص١٣٠ . رانظر : المتنبي يسترد اباه لعبدالغني الملاح ص١١٦ .
(٧) خزانة الادب ــ للبغدادي ٣٨٣/١ .
(٨) شرح ديوان المتنبي ــ عبدالرحمن البرقوقي ج٤ ص١٨٦ (القاهرة ١٩٣٨) .
(٩) مع المتنبي ــ للدكتور طه حسين ص١٣٠ .
(١٠) ابو الطيب المتنبي ــ د . ر . بلاشير ص٦١ .
(١١) الشذا الطيب في ذكرى ابي الطيب ــ عبدالجواد السيد ابراهيم (القاهرة مارس ١٩٣٠) ص١٧ .
(١٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ــ ابن تغري بردي ج٢ ص٣٧٠
وانظر : تاريخ بغداد ــ للخطيب البغدادي ج٤ ص١٠٤ ، ونزهة الالبا في طبقات الادبا ــ لابن الانباري ص٣٦٩ .

(١٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ للبديعي ج١ ص٢١ .
(١٤) ابو الطيب المتنبي ـ د . ر . بلاشير ص١١٧ .
(١٥) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٥٢ .
(١٦) رسالة الغفران ـ لابي العلاء المعري ص٨١ .
(١٧) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص٢٠٤ .
(١٨) شرح ديوان المتنبي ج٣ ص٢٧ .
(١٩) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٧٤ .
(٢٠) شرح ديوان المتنبي ج١ ص١٤٠ .
(٢١) شرح ديوان المتنبي ج٣ ص١٢١ .
(٢٢) نظرة اجمالية في حياة المتنبي ـ لمعروف الرصافي . تحقيق ابراهيم العلوي ص١٠ (بغداد ١٩٥٩) .
(٢٣) الصبح المنبي ـ للبديعي ج١ ص٤٦ و ٤٧ و٥٤ و٥٥ .
(٢٤) المتنبي شاعر السيف والقلم ـ فوزي عطوي (بيروت١٩٧١) ص ١٧ .
(٢٥) الصبح المنبي ـ للبديعي ج١ ص٤٥ .
(٢٦) ابو الطيب المتنبي وما له وما عليه ـ لابي منصور الثعالبي ص١٦ .
(٢٧) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ـ عبدالوهاب عـــزام ص٢٠٧ (بغداد ١٩٣٦) .
(٢٨) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص١٦٧ .
(٢٩) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص٥١٩ .
(٣٠) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص١١١ .
(٣١) الشذا الطيب في ذكرى ابي الطيب ـ عبدالجواد السيد ابراهيم ص ٢٤ .
(٣٢) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٩٠ .
(٣٣) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٣٦٧ .
(٣٤) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٤٥ .
(٣٥) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص١٦ .
(٣٦) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص١١١ .
(٣٧) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٥٢ .
(٣٨) ذكرى ابي الطيب بعد الف عام ـ عبدالوهاب عزام ص١١١
(٣٩) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص٣٦٨ .
(٤٠) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص٥٢٩ .
(٤١) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٢٧٠ .
(٤٢) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص١٠٥ .
(٤٣) شرح ديوان المتنبي ج٤ ص١٢٤ .
(٤٤) شرح ديوان المتنبي ج١ ص٨٨ .
(٤٥) شرح ديوان المتنبي ج٢ ص٢٤٦ .